

تماهي الأجناس الأدبية في السيرة الشعبية وأثرها في حفظ مقومات الهوية العربية

Fusion of literary genres in popular biography and its impact on preserving the foundations of Arab identity

أ/د: عبد القادر حمрани¹*

جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف - a.hamrani@univ-chlef.dz

تاريخ الاستلام: 2023 / 07/09 - تاريخ القبول: 2023 / 09/14 - تاريخ النشر: 2023 / 12 / 31

ملخص: تعدّ السيرة الشعبية من أكثر الفنون الأدبية تعبيرا عن الواقع المعيش ماضيا وحاضرا بكلّ تمثّلاته ومخلفاته وتطلّعاته. وما ذاك إلّا لأنّها صوت الشعب وضميره الجمعي الذي توجّهه ملابسات الحياة وأحداثها التاريخية التي يكون فيها الفرد فاعلا منفعلا في الآن نفسه. ولما كانت على هذه الدّرجة من الأهمية كان سعينا في هذا البحث مركّزا على إظهار فاعلية السّيرة الشعبيّة في الحفاظ على مقوّمات الأُمّة وسط تماهي الأجناس الأدبية فيها. وإحكام الرّبط بين ماضيها وحاضرها ربطا يحفظ لها أصالتها، ويبعث روح الاستمرارية في أوصالها.

الكلمات المفتاحية: التمثّلات الفكرية، الضّمير الجمعي، ترسيخ الهوية، فاعلية السيرة الشعبيّة، روح الاستمرارية.

Abstract: Popular biography is one of the most reflective literary arts of past and present living reality. Because it is the voice and collective conscience of the people guided by the circumstances and historical events of life. What was so important was our quest for this research focused on demonstrating the effectiveness of the biography. The tightening of the link

* المؤلف المرسل : أ/د: عبد القادر حمрани

between her past and her present preserves her authenticity and sends a spirit of continuity into her connections.

Keywords: represents an idea, collective conscience, To consolidate identity, spiritual continuity.

1. مقدمة :

يعدّ التراث الشعبي ركيزة أساسية في ترسيخ هوية الأمم، ومصدرا حيويا في شدّ لَحمة التكامل بين أفراد الشعب. وربط أواصر التواصل بين ماضيه وحاضره ربطا يستلهم منه قوّته واستمراريته. ويعزّز حضور الأمة المتميّز في المحافل الدّولية. فهو يمثّل الدّذاكرة الحية للمجتمع والضمير الجمعي له. فبقدر ما هو خيال لأمة في وعيها الجمعي، فهو حصن منيع لحفظ هويتها، وباعث روح الاستمرارية فيها. إنّهُ يمثّل نتاجا فكريا متراكما لخبرات طويلة من التّاريخ تحمل في طياتها ملامح الشّخصية القومية في بعديها التاريخي والجغرافي. وما تكتنزه من عادات وتقاليد تجسّد الهوية العربية الإسلامية. ففي الموروث الشّعبي ما يعكس ملامح الأمم و خصوصياتها. وتأتي السيرة الشعبية في طليعة الإرث الحضاري الذي يؤرّخ لأحداث الأمة، ويعكس جانبا مهمّا من ثقافتها الشّعبية التي تعكس خصوصيتها، وحقيقة نبعها وطبعها كلّ ذلك في إطار ما يستقطبه فنّ السيرة الشّعبية من أجناس أدبية لها من وشائج القرى ورحم الأدبية ما يسمح لها بإحداث التفاعل النصّي الذي يخدم الغرض العام من هذا الفنّ الأدبي في بعده الحضاري، ووازعه القومي. إنّ هذه الممارسة الإبداعية تطرح كثيرا من التساؤلات الرّامية إلى التمييز بين الهامشي والمركزي على المستوى الإنجازي شكلا ومضمونا. وتؤسّس لفكرة التلاقح بين الأجناس الأدبية التي ترفد بعضها بعضا وهي ترصد الخطوط والمعابر للجمع بين منجزات الإرث الحضاري وتطلّعات المستقبل ومتطلّباته القومية في زمن العولمة والاستلاب الحضاري الذي يعصف بهوية المستضعفين، وإرثهم الفكري.

2. مفهوم السيرة الشعبية:

يحمل لفظ السيرة في دلالته اللغوية معنى « السنة والطريقة والهيئة».¹ التي تخصّص الشيء وتميّزه عن غيره حتى يصير معروفاً بها. « والسيرة الطريقة يقال سار بهم سيرة حسنة والسيرة الهيئة وفي التنزيل العزيز سنعيدها سيرتها الأولى وسير سيرة حدثت أحاديث الأوائل وسار الكلام والمثل في الناس شاع. ويقال هذا مثل سائر. وقد سير فلان أمثالا سائرة في الناس».² وفي تاج العروس: « سير سيرة بالكسر : جاء بأحاديث الأوائل أو حدث بها . قال شيخنا : والسيرة النبوية وكُتِبَ السير مأخوذة من السيرة بمعنى الطريقة وأدخل فيها الغزوات وغير ذلك إلحاقاً أو تأويلاً».³

نستشف من الدلالات السابقة أنّ السيرة بمعنى الإخبار والحكي لمرويات الأوائل. وقد اقترنت بالمغازي عادة وحياة الأبطال والعظماء. ومنها السيرة النبوية الشريفة لابن هشام. ثم توسّع مدلول السيرة الشعبية ليشمل « مجموعة من الأعمال الروائية الطويلة ذات سمة فنية متشابهة وذات أهداف فنية متمثلة».⁴ والسيرة في دلالتها المعاصرة تجمع بين التاريخ والأدب. فهي من حيث حديثها عن حياة الأبطال ومآثرهم تعدّ تاريخاً. ومن حيث إنّها تحمل طريقة صاحبها في الإنتاج والإخراج والسرد المتلون بثقافته ومنازع مجتمعه تعدّ أدباً⁵ بما يحمله من أبعاد خاصّة مشحونة بمختلف التراكمات ذات الإرث الثقافي والاجتماعي والحضاري بصفة عامّة الذي أنتجه الفكر الإنساني في تفاعله مع ملابسات الحياة وأحداثها المختلفة. إنّ السيرة الشعبية « لا تخضع خضوعاً كلياً لقوانين الرواية وإن كانت تأخذ القلب الروائي دون التزام بمبكة موحدة».⁶ ومن مميزات السيرة الشعبية «أنها فن مستقل بذاته له قواعده وأصوله، وله بناؤه الفني الخاص به، وله أهدافه الفنية والاجتماعية والسياسية التي استقل بها وتميز».⁷ تميّزاً يعكس البصمات الفكرية لمقومات الأمة. ولما كان اللسان العربي حاضن هذا الإرث التليد فقد وُسم بخصوصيته التي جسّدت معالمه العرقية والفكرية والتاريخية على حدّ سواء. وسأيرت كبرى التحوّلات التي شهدتها الأمة العربية في مسيرتها التاريخية بداية من العصر الجاهلي إلى فجر الإسلام الذي بعث فيها كوامن الحياة. وأمّدها بشحنة عاطفية قويّة جعلتها تعزّز وتفخر بالعروبة والإسلام حيث امتزجت هذه الروافد فيما بينها لتنتج فكراً أدبياً له سيماته الخاصة التي تفرّد بها عن غيره. من هذا المنظور جاز لنا القول بأنّ « السيرة الشعبية خاصية أدبية إسلامية بالدرجة الأولى؛ لأنها عبرت عن مراحل التجمع العربي أولاً، ثم الإسلامي بعد ذلك في مواجهة

الأخطار الخارجية التي هددت الوجود الحضاري الإسلامي تهديدا حريبا مباشرا، أو تهديدا اقتصاديا وثقافيا مؤثرا وفعالا.⁸

لقد حملت السيرة الشعبية هموم الطبقة الكادحة من الشعب الذي عانى الويلات في حقبة تاريخية حرجة. وقد تصدّت لعوامل التغريب والمسخ التي عرفها العالم العربي إبان الغزو الاستعماري. وربما كان باعث شحذ الهمم وتقوية العزائم لمجابهة تلك الأخطار من أبرز العوامل التي أسهمت في انتشار السيرة الشعبية بل وفي ازدهارها بشكل لا فت للنظر « في زمن كان الناس أحوج ما يكونون إلى القوة والبطولة في العصر المملوكي الذي شهد اجتياحات المغول والإفرنج الرهيبة واستبداد سلاطين المماليك القاسي.⁹ هذه الظروف القاسية من الأحداث التاريخية التي طبعت مسار الأمة العربية أوجبت العناية بالسيرة الشعبية التي عبّرت عن جانب مهمّ من حياتها وعزّزت روح القومية العربية فيها التي غدّتها اللغة المشتركة الحاملة لإرثها الحضاري بمكوّناته الأساسية بناء على أنّ « الإحساس بالانتماء عند الشعوب لا تخلقه الأهداف السياسية وحدها، وإنّما يخلقه هذا التعايش البناء الذي يشترك بحكم الأدب الشعبي بعامة، والسيرة الشعبية بخاصّة في الآمال والأحلام معا. وفي مواجهة همّ مشترك، والبحث عن وسيلة الخلاص من ظلم مشترك، وكيفية الخلاص-أيضا- من خطر مشترك، وهو ما تحدّثه بالدرجة الأولى اللّغة المشتركة. وأعني هنا لغة التعبير الفنيّ التي تترجم عن الشّعور. وتعكس الرّؤى. وتتيح مساحة كبيرة للموروث الثقافي ليتمازج ويأثلف.¹⁰»

3. التفاعل النصي في السيرة الشعبية:

تمثل السيرة الشعبية عالما إبداعيا تماهت فيه جملة من الأجناس الأدبية والأشكال الفنية ذات الخصوصية السردية وذلك لما امتلكنه من خصوصيات ومزايا فنية يسّرت لها استقطاب العديد من الأشكال الفنية والأدبية في اتّساق سلس وانسجام مرّن تتّضح فيه الغاية ويتوحّد القصد. لقد غدت بفعل هذا التفاعل عالما أدبيا خصبا ورحبا استقطب العديد من الأشكال الفنية والأدبية المتناغمة فيما بينها، حيث تذوب الفوارق فيحدث التمازج والتفاعل النصي.

ليست السيرة الشعبية بما تتضمنه من مشاهد فنية ربما لأحداث تاريخية كما وقعت بل تجاوزت ذلك إلى إخراج جديد يسمح بتشكيل نسيج قصصي مفارق يحقق لذّة القارئ في كنف المتخيل النصي. لقد تأتّى لها ذلك لما استغلت ألوانا من النصوص التي عمل الراوي على تجميعها من مصادر مختلفة، و سعى إلى توظيفها بما يخدم الهدف الأساسي من نصّ السيرة الشعبية. هذا التداخل والتماهي بين الثري والشعري هو ما عرف في الدراسات الأدبية الحديثة بالتناسل الذي يلخص مفهومه في : «أن يتضمن نص ما - روائي أو غير روائي - نصا آخر بحيث يؤدي وجود النصين معا إلى إحداث عدد من الإحالات الإضافية إلى خارج النص الأصلي وإشاعة عدد من الأجواء والمناخات الجديدة التي يعجز عن إشاعتها بمفرده، أو تكون إشاعتها دون القوة المرجوة ما لم تتم الاستعانة بالنص المتضمن.»¹¹

تتماهى الأجناس الأدبية داخل السيرة الشعبية لتدخل في حوار منتج للدلالة والقصود. بناء على أنّ وحدة النص ليست كامنة في أصله وجنسه إنّما في مقصده ووظيفته، وما يقوم عليه من تآزر للعناصر المكوّنة له خدمة للهدف المنشود منه. إنّ « الأنواع الأدبية يمكن أن ينظر إليها على أنّها ضرورات نظامية تلزم الكاتب من جهة، وكذلك يلزمها الكاتب بدوره.»¹² لأنّ طبيعة الحدود الفارقة بين هذه الأجناس هي حدود واهية تسمح بالتداخل والتفاعل والتكاثر والإنتاج. ومهما يكن من أمر فإنّ السيرة الشعبية لا يمكن أن تكون جنسا مكتفيا بذاته ومستغنيا عن غيره، خاصّة إذا علمنا بأنّ الذي يحقق له الثراء ويمنحه القدرة على الإنجاب النوعي هو ذلك التلاحق الحاصل بينه وبين غيره من أجناس الخطاب الأدبي التي تكسبه التنوّع والثراء. لهذا السبب يمكن القول بأنّه بات من الضروريّ التحلّي عن فكرة نقاء الجنس الأدبي، واعتماد فكرة التماهي بين الأجناس التي يرفد فيها كلّ جنس غيره. ومن ثمّ يصير البناء تلفيقيا يستهوي الأنفس. ويحقّق المقاصد التي يرومها الأديب اللبيب. ولا نجافي الحقيقة إذا عددنا السيرة الشعبية من أكثر الأجناس الأدبية تمثيلا لمقولة

التداخل بين الأجناس. ومردّ ذلك إلى ارتباطها بالوقائع التاريخية، والتقلبات الاجتماعية والسياسية التي هي في تحوّل مستمرّ. وهي في مجملها ذات طابع اجتماعي يملّي عليها الاستجابة لرغبات المتلقين الذين هم في الأغلب الأعمّ يفضّلون الالتفات من فنّ إلى فنّ حرصاً منهم على التنوّع دفعاً للرتابة. يضاف إلى ذلك تماهي الخيال والواقع، وانعدام المسافة بينهما تحقيقاً للأثر الجمالي. وفي خضمّ هذا التفاعل النصّي تطغى الثّرة السردية التي توفّر جوّاً تشيع فيه النغمة الحكائية الجالبة لاهتمام المتلقي، والدّافعة له للتفاعل ذهنياً ووجدانياً مع أحداث النص. « هذه الحكائية بقدر ما تتجسّد باتّساق وانسجام ووحدة من خلال ترابط السّير وتعالقها لتشكيل نصّ ثقافي واحد. هذا النصّ الثّقافي، يتجاوز حدود الجنس ليعانق النّصية التي تؤكّد كون السيرة الشعبية (ملتقى نصياً) يستوعب العديد من النصوص ويعارض العديد منها. ويستعير آليات بعضها. ويؤسّس ذاته داخل النصّ العربي. ويستقلّ عنه ليغدو على هامشه. »¹³

لقد اهتدى كاتب السيرة الشعبيّة إلى ابتداع مسالك التّعبير، وأساليب التّصوير لمعتزك الأحداث في الحياة حيث تمّ توظيف كلّ ما من شأنه أن يفي بالقدر ويحقق الغرض. وهو في تطلّع دائم إلى تحسين إنجازه، وتجويد بيانه كي يلج إلى أعماق النفوس فيشكّل قوّة ضاغطة عليها تجعلها تدعن لما يُلقي عليها. ولما كانت السيرة الشعبيّة وليدة واقع معيش يفرض عليها أن تعكس أحداثه، وترسم معالم توجيهه وسط جملة من العوامل النفسيّة والاجتماعية المتداخلة فيما بينها، علماً بأنّ لكلّ عصر ومصر متطلّباته المختلفة باختلاف نوازعه الفكرية والعقدية. فالسيرة الشعبية من هذا المنظور تعدّ موسوعة فكرية حكايا تحمل تراثاً إبداعياً مشحوناً ببصمات فكرية واجتماعية وثقافية تعكس هوية الأمة وخصوصياتها. لقد حملت من فضاء الأمة ما يغري بالباحث المتخصص ويدفعه إلى إعادة قراءة هذه الأخيرة قراءة واعية متبصرة لكشف سمات التماهي مع بعض الأجناس الأدبية التي

هي من فصيلتها، حيث تسمح بالتفاعل معها تفاعلا نصيا، يتجلى ذلك فيما يقيمه نصّ ما من علاقات مع غيره من النصوص التي تتباين فيما بينها في الجنس والماهية.

إنّ هذا النسق من الانفتاح يعكس وبجلاء القدرة الفنية لصاحب النصّ وسعة ثقافته المعرفية التي تؤهله للتصرّف والاستثمار وفق ما تتكئ عليه شخصية البطل. وما تملّيه حوادث الدهر. يصاغ كلّ ذلك في كنف فنّ نثريّ أصيل يوطّره العقل الهادف ضمن حركية خيالية إبداعية بالنظر إلى « ما يمتلكه من خصوصيات ومزايا فنية، وشكلية ومضمونية، سهّلت له استقطاب العديد من الأشكال الفنية والأدبية في حركة تناغم، وتفاعل سلسلة مرنة لا يمكن فهم فوارقها ومزاياها إلّا من خلال النظرة المتفحّصة الناقدة والدقيقة.¹⁴ لقد جعل هذا الأمر من السيرة الشعبية جنسا أدبيا منفتحا على الأجناس الأخرى وحاضنا لها، خاصّة إذا سلّمنا بأنّ أحداثها تتأرجح بين الواقع والخيال. وتجمع استشهادات شعرية، وأمثالا، وحكما مأثورة عن العرب تستمدّ قيمتها من تنوّعها وتجانسها مع المقام والمقال. ومن بين الفنون الأدبية التي تضمنتها السيرة الشعبية وكان لها الحظّ الأوفر في بناء هيكلها:

01/ الشّعْر: تعدّ السيرة الشعبية من أكثر الألوان الأدبية انفتاحا على غيرها من الأجناس الأدبية. لقد حوت هذه الأخيرة نصوصا من الشّعْر، وقطعا من النثر التي سخّرتها لأهدافها، وما ترومه من مقاصدها. فلا تكاد تخلو متون السير الشعبية من قصائد شعرية، أو مقاطع نثرية ذات قيمة فكرية وأدبية. وهنا يحدث ما يعرف بالتناس الذي يؤدّي إلى إحداث إحالات إضافية خارج النصّ الأصلي. وليس هذا الأمر بغريب إذا كنّا نعلم مسبقا أنّ الشّعْر ديوان العرب، وحاضن هويتهم الأدبية. فيه خلّدت آثارهم، وحُفظت أّيّامهم. يقول عمرو بن العلاء مبينا قيمة الشّاعر في الجاهلية: « كان الشّاعر في الجاهلية يقدّم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشّعْر الذي يقيّد عليهم آثارهم. ويفخّم شأنهم، ويهوّل على عدوّهم، ومن غزاهم. ويهيب من فرسانهم. ويخوّف من كثرة عددهم. ويهاجم شاعر غيره فيراقب شاعرهم.¹⁵ لهذه الأسباب كان للحضور الشعري

السهم الأوفر في السير الشعبية. وقد دعت الحاجة إلى ذلك في كثير من الحالات التي اقتضتها الأحداث التاريخية التي عرفتها الأمة العربية قبل الإسلام وبعده بصفة خاصة، حيث غدت السيرة الشعبية « خاصة أدبية إسلامية بالدرجة الأولى، لأنها عبّرت عن مراحل التجمّع العربي أولاً، ثمّ الإسلامي بعد ذلك في مواجهة الأخطار التي هدّدت الوجود الحضاري الإسلامي تهديدا حريا مباشرا، أو تهديدا اقتصاديا وثقافيا مؤثرا وفعّالا.» ففي السيرة الشعبية ذات الصلة بالحروب يتمّ التركيز على الشخصية البطلة التي تجري على ألسنتها أشعار المنازلة الزامية إلى بعث الحمية، وإظهار الشجاعة الأدبية والنفسية بغية إضعاف الخصم و رفع راية التحدي نحو قول عنتره:

ألا أيّها المغرور بين العوالم *** أتتك كؤوس الموت في حدّ صارمي
أنا عنتره العبسي قسورة الوغى *** مبيد الأعادي عربها والأعاجم
فابشر فهذا اليوم تبقى مجندلا *** وتبقى طريقا للنسور القشاعم
وقول الإمام عليّ كرم الله وجهه:

أنا عليّ البطل المنتخب *** عند القتال الرجال أغلب
وأخذل الكفّار عند قتالهم *** واليوم تعلم قتالي يا مرحب
كم فارس عند اللقاء أهلكته *** و لا يبقى فوق الخيول يركب

لا خلاف بين من لهم بصر بلغة الإمام علي كرم الله وجهه، و عنتره بن شداد العبسي أنّ هذه الأبيات منتحلة قد أجريت على لسانيهما من قبل الراوي لبك الأحداث و نفخ روح البطولة فيها عبر تلك الأشعار التي بات إيرادها في السير الشعبية ضرورة ملحة تستدعيها طبيعة الإنسان العربي الميل لتذوق الشعر والتفاعل معه تفاعلا يشحن عواطفه، ويستنفر قواه العقلية والجسدية « ففي قصّة عاد الأوسط مثلا نرى عبيد بن شبرمة الجرهمي يذكر على لسان بطله شعرا يصف فيه حربه مع الفرس يبلغ ثلاثة وثلاثين بيتا. ثمّ إذ يتوجّه إلى الشام يقول في ذلك شعرا يبلغ خمسة وثلاثين بيتا. ثمّ يقف ليذكر قوّته وسطوته وجبروته في ثلاثة وأربعين بيتا.»¹⁶

لقد كان الشَّعر ولا يزال من أبرز الوسائل التعبيرية المخلّدة لماثَر الأُمّة في تفاعلها مع أحداث التاريخ وملايسات الحياة، يسجّل حضوره في كلّ مناحيها، فيهدّب النفوس، ويزرع فيها قيمَ المروءة والشّهامة والإباء. ولله درّ أبي تمام إذ يقول:

ولولا معان سنّها الشَّعر ما درى *** بناء المعالي كيف تبني المكارم

لقد وجد كاتب السيرة في الشَّعر متنفساً لأفكاره، ورافداً قوياً لمقاصده التي يسعى للتمكين لها في نفوس الجماهير المتجاوبة مع هذا الجنس الأدبي الذي يجمع بين الإبداع والإمتاع في كنف الإقناع.

02/ الحكم والأمثال: تعدّد الحكم والأمثال من أهمّ الروافد التي تغذّي السيرة الشعبية. والمثل هو قول محكي يتّسم بإجاعة اللفظ، وإشباع المعنى وجودته، وحسن الانسجام بينه وبين مضربه. فكّما كان المثل معبّراً عن واقع الحال كان أدخل في التأثير وأطوع للتعبير عن الأهداف المتوخّاة من السيرة الشعبية، لذلك لا تكاد سيرة من السّير الشعبية تخلو من ضرب المثل بفعل ما يكتنزه من أفكار ومقاصد يتوسّل إليها بهذا الضرب من القول الذي يحمل في حناياه أبعاداً أخلاقية واجتماعية ذات أثر جليل في الاحتفاء بالذاكرة والوجدان الجمعي وحفظ الهوية وثوابت الأُمّة. «و المثل فوق كونه خلاصة لتجارب إنسانية طويلة، وفوق جماله اللفظي وبلاغته، فهو صورة مباشرة لأحوال المجتمع المتداول فيه.»¹⁷

لقد شكّلت الأمثال والحكم رافداً سردياً، وسندا حكاياً اتّكأت عليه السيرة الشعبية في تحقيق أهدافها. وكانت مصدراً مهمّاً في إثراء التجربة الإنسانية و ربط الوقائع المتشابهة فيما بينها لإسقاط بعضها على بعض نظراً لجمعها لميزة الشمول والتناظر بين أحداث الحياة وتجارب الناس فيها. وقد تجلّت أهمية الحكم والأمثال الشعبية في قدرتها على خلق منظومة فكرية واجتماعية ذات قدرة خاصّة على استحضار الموروث الشعبي لمعالجة مستجدات الحياة وإفرازاتها المختلفة.

إنّ تداخل الأجناس الأدبية والأشكال التعبيرية ضمن السير الشعبية لا يعني بأيّ حال من الأحوال ذوبان هذه في تلك، وإنّما يبقى كل لون منها محافظاً على خصوصيته وسط تلك الفسيفساء من العرض التي يطبعها التكامل في المبنى والتداخل في المعنى والهدف، فالتداخل يحدث فنيا لينتج تنوعاً وثراء داخل السيرة الشعبية شكلاً ومضموناً.

4. تجلّي الهوية العربية في السيرة الشعبية:

تعدّ السيرة الشعبية مستودعا فكريا ومعرفيا مشحونا بمختلف مكوّنات الهوية العربية. فهي تعكس بنية العقل العربي ضمن ذلك المزيج الجامع بين التنوّع والتكامل والتداخل الذي تتماهى فيه مختلف الأحداث التاريخية والقيّم الإنسانية. هذا الإرث الحضاري الذي هو بحاجة ماسّة إلى مساءلة فكرية، وإعادة قراءته قراءة واعية بمناهج حديثة مسفرة عن أسئلة الهوية، ومتطلبات المراحل التاريخية التي أرّخت لأحداث الأمة العربية.

إنّ قراءة فاحصة لما تتضمّنه السير الشعبية تجعلنا نقف على جملة من القيم الهادفة إلى حفظ كيان الأمة والدّود عن حياضها، والتعريف بأبرز مآثرها، وطبائعها التي طالما تغنّت بها كالمروءة والشّجاعة والإقدام والتّجدة وإباء الضّيم وكلّ ما له علاقة بإعلاء راية العروبة ممّا هو أصيل في بابه، ومناوئ لكلّ ما هو دخيل على الأمة ساعٍ في المسخ والتغريب. وكلّ ما من شأنه أن يعصف بوحدة الأمة ويحول دون التفافها حول موروثها الشعبي الذي يشدّ من أزرها. ويحميها من الدّوبان في حضارة غيرها.

إنّ في سيرة عنتر ما يرمي إلى التمكين لهذه القيم في النّفوس، وتعزيز مكوّنات الهوية العربية، وحفظ ذاكرتها الشعبية من خلال ما تضمّنته هذه السيرة من عادات وتقاليد كإكرام الضّيف وتمجيد الأبطال، وإباء الضّيم، والعقّة عند المغنم، وارتباط الفارس بقومه وعشيرته. هذه السيرة الشّهيرة « تحتفي احتفاء شديدا بالمكان والزّمان. وهي تدور في الحقبة الزمنية السابقة للإسلام مباشرة. وقد فهم المؤلّف هذا وحرص عليه حرصا واضحا وشديدا حتى أنّنا نستطيع أن نقول إنّ سيرة عنتر وثيقة فنية حية ترسم صورة للحياة العربية قبل الإسلام.¹⁸ وتبرز معالم الفرد العربي العاشق للمكارم، الدّائد عن القيم والمحارم. هذه الشّيم التي سعى مؤلّفو السيرة إلى التمكين لها في النّفوس وجعلها علامة دالّة على مروءة الشعب العربي واحتفائه بالقيّم الإنسانية العالية المتجذّرة فيه وسط انصهار الأجناس الأعجمية في بوتقة الإسلام الذي غدا جامعا بين مختلف الأعراق البشرية.

نشأت السيرة الشعبية في ظروف تاريخية صعبة الأمر الذي يفسر انطلاقها من شخصيات قويّة معروفة بالبطولة والشجاعة والإقدام. ومن ثمّ فهي نافذة إلى روح المجتمع بفروسيّتها وأخلاقها، وما يرفدها من خلال كريمة عملت السيرة جاهدة على زرعها في النفوس. ولتطعيم هذه الأخيرة بما هو رافد لها، ومحقق لأهدافها عمد روادها إلى توظيف بعض الأجناس الأدبية التي تشحنها بطاقة إضافية، تجعلها أكثر مصداقية لدى متلقّيها. ومن أبرز تلك العلوم الرافدة لها «التاريخ، والأنساب، ومن أبرز الفنون الشعر والخطابة والترسل... وهي مجتمعة تشكّل كيان السيرة».¹⁹

إنّ علاقة العربي بترائه الشعبي هي علاقة انتماء يتغذى برمته على ما يحمله ذاك الإرث الذي يرتبط في وعيه ووجدانه بمخزونه الروحي والفكري. والذي لا شكّ فيه أنّ درجة التأثير والتفاعل مع الإرث الحضاري عالية المؤثر لدى الفرد العربي بالقياس إلى غيره من الشعوب الأخرى التي لا تكثر ثكثيرا بالجانب الديني واللغوي اللذين هما من أقدم المقدّسات لدى العربي الأصيل الذي يعتزّ ببعده القومي ويحتفي بترائه الشعبي الذي يعدّ «إبداعا عفويا أصيلا، يحمل ملامح الشعب، ويحفظ سماته، ويؤكد عراقتة، ويعبر عن همومه اليومية، ومعاناة أفرادها، على مختلف مستوياتهم، وهو صورة لروحهم العامة، وشعورهم المشترك».²⁰

يؤكد المختصّون على أنّ الفرد العربي مؤطّر بترائه الذي تلقاه منذ صغره، و لازمه إلى أن غدا جزءا من كيانه لا ينفصم عنه. عليه تقوم مرجعيته التي يستند إليها في تفكيره، وتمثله للعالم من حوله. وعلى آثاره يبني استشرافاته المستقبلية. وهو في إعادة قراءته لتراثه يكون مستحضرا متذكّرا، وليس مستفهما ولا متنكّرا.²¹ وهذا ما تعكسه سيرة "الأميرة ذات الهمّة" التي هي سيرة شعبية فلسطينية تناقلتها الأجيال منذ القرن الثامن للميلاد. وفيها من الرموز والعتبات ما يجعلها مكوّنا أصيلا للذاكرة العربية الفلسطينية المقاومة لعواصف الطمس والمسخ. وفيها من العبر والمواقف الخالدة التي عكستها سيرة الأميرة بوصفها امرأة مسلمة لها مكانتها في المتخيّل الجمعي قادرة على تحقيق الحلم القومي العربي الذي تردّى وضعه، وذهبت ربحه نتيجة الأحداث التاريخية الأليمة التي عصفت بالخلافة الإسلامية، وجعلتها أشلاء متناثرة في شرقها وغربها بفعل الوهن الذي دبّ في أوصال الأمّة، وأحالتها لقمة سائغة لأعدائها. لقد مثّلت سيرة "الأميرة ذات الهمّة" حلما قوميا، وقدمت صورة مثالية لمكانة المرأة المسلمة في الوعي الجمعي الذي جعل منها رمزا للتّحدي والإباء.

لقد تجمّعت في سيرة الأبطال جملة من الخلال التي تمثل قيم الكمال والجمال التي يسعى الراوي إلى التمكين لها في النفوس بعدما أكد على تجذّرها في حياة الأمة من خلال أولئك الأبطال الذين كانوا بمثابة « الوعاء الذي انصهر فيه فكر أمتهم وثقافتها. فالبطل ليس تمثيلا للجغرافيا التي يختبرها بعدما فتح الأرض، بل هو تمثيل للمعرفة والخبرات إنّه تمثيل لملامح أمة بأكملها.»²² والإنسان بطبعه ابن بيئته وزمنه. مبعث انشغالاته وتساؤلاته نابع من واقعه لا غير. وهو يعكس ذلك الصراع الدائم القائم بين الفرد وإفرازات الواقع في تجلياته المختلفة.

إنّ أدب السيرة السيرة الشعبية « سيظلّ منطلقا للتعبير عن القضايا المعيشية، كما يظلّ دائما هو الأداة الصالحة للإسقاطات السياسية، والاجتماعية، وللتضمينات العقلية والوجدانية، وللتسجيل المستمرّ والحَيّ والمطوّر للعادات والسلوك والتقاليد، وما يصيب المثل من تغيّرات وتحولات.»²³ كثيرة هي النصوص الثرية التي حوتها السيرة الشعبية الموزّعة بين الأشعار والخطب التي عرفها العرب في الجاهلية والإسلام خاصّة وأنّ كثيرا من المواقف ضمن السيرة تستدعي نصوصا خطابية حماسية تستنفر الشعوب وتدعوهم للدّود عن حياضهم والالتفاف حول أبطالهم نصرّة لأوطانهم ودينهم. إنّ توظيف الموروث الثقافي في السيرة الشعبية ما هو إلّا صدى للذات المنتجة للخطاب المتجاوبة مع الملفوظ الشعبي في مستوياته المختلفة. وهي بذلك تعكس عالما أدبيا خصبا ورحبا استقطب العديد من الأشكال الفنية والأدبية المتناغمة فيما بينها، حيث تذوب الفوارق فيحدث التمازج والتفاعل النصّي.

5. نتائج البحث:

- لقد عرف العرب إلى جانب رواية الشّعْر الذي هو ديوانهم، ولسان حالهم قسما آخر من السرد الرّوائي الذي لا يجب أن يُلقى عليه الستار أو أن يخس حقه في الدّراسة والاستثمار استثمارا يطل جوانب عدّة ذات رحم قوية بالسيرة الشعبية في حملتها اللّغوية والفكرية وما استبطنه من خصوصيات اجتماعية وتراكمات تاريخية وتجليات عرفانية، تجمع بين المألوف الواقعي والعجيب التخيلي حيث عُدت السيرة الشعبية « ملحمة عربية مجسّدة لمختلف الرّؤى والتّصورات العربية

الإسلامية، وهي من هذه الزاوية تلتقي مع مختلف المصنّعات العالمية وإن اختلفت طريقتها في التقديم والتمثيل، وصعدت كلّ ذلك بواسطة التخيل.²⁴»

- إنّ المرونة التي طبعت السيرة الشعبية سمحت لها بالتقبّل الفني للعديد من الأجناس الأدبية، حيث انفتحت على كثير من الفنون الأدبية التي احتوتها بل واذبت فيها بما يخدم المقاصد والغايات التي تستهدفها السيرة الشعبية لأنّ المؤلّف قبل أن يكون مبدعا فهو ابن بيئته بما تحمله من مواصفات وتراكمات. وما ينبغي أن يؤسّس له من متطلبات تمليها تطلّعات الأمة، وما ينبغي أن تحقّقه من إنجازات تعصم بها نفسها من الدوبان في ثقافة الغير.

- إنّ التراث العربي زاخر بالتجارب الشخصية التي تعكس حسّا معرفيا ثريا وإنتاجا أدبيا متميّزا لم يعط حقه من الدّراسة والتّحليل بغية تفعيله والتمكين لأهدافه ميدانيا وهو أمر يبعث على القلق أمام رّيّاح العولمة الجارفة التي أذابت الخصوصيات وقوّضت المرجعيات. وإذا كان الأمر على هذه الدرجة من الخطورة فحريّ بنا والحال هذه إلى التفطّن إلى هذه المكائد والتصدّي لها بكلّ حزم وعزم حفاظا على مرجعياتنا الفكرية ومقوماتنا الحضارية التي تحمل جانبا منها السير الشعبي في أبعادها الرّوحية والفكرية. وما شهدته من أحداث تاريخية.

- إنّ المتنبّع لهذا النسق من الفنّ الأدبي يقف على حقيقة مفادها أنّ هذا الأخير بدأ في التقلص والانحسار شيئا فشيئا من حيث الإنتاج والتداول نتيجة جملة من العوامل الكابحة في ميدانها منها ما هو خارجي تؤطّره نزعة الغزو الثقافي وما ترتّب عليها من انسلاخ أو تنكّر وهجران لكلّ ما هو أصيل عريق مقابل الدّهول والإعجاب بكلّ ما هو وافد علينا من ثقافة الغرب الرّامية إلى طمس معالم الهوية العربية وإذابة مرجعياتها الفكرية وخصائصها القومية وفي هذا من الخطورة ما يملّي علينا ضرورة التفطّن لهذا المسخ المنهج وإعداد العدّة الأنسب لردّ كيد الأعداء.

- لقد أسهمت الوسائل التكنولوجية الحديثة بشكل فعّال في كسر الحدود بين الأمم وتوجيه العقول توجيهها سلبيا من شأنه أن يفصم العرى بين الشعب ومقوماته الحضارية وخصوصياته القومية. فالاستلاب الحضاري أصبح متسارع الخطى في زماننا هذا الذي غزت فيه الأنترنت شتّى مناحي الحياة. وجعلت الفرد متفاعلا مع ما يلقي عليه وفي غفلة عن إرثه الحضاري بل و في هجران

متواصل لكل ما هو محصّن له من الدّويان في حضارة الغرب التي تسعى إلى طمس ومسح معالم الخصوصيات القومية.

6 . التوصيات:

- تكتنز السيرة الشعبية مخزوناً معرفياً هائلاً وهو في قسم كبير منه لايزال بحاجة إلى الدراسة والتحليل للتنبيه على قيمة خبئه. وعليه لا بدّ من إعادة النّظر جذرياً في كيفية التعامل مع السيرة الشعبية لتحقيق القراءة الواعية الهادفة التي تغوص في أعماق الذاكرة الشعبية وتستبطن الحملات الفكرية بغرض الوقوف على المقوّمات الذاتيّة للأمة العربية والاستفادة منها في مدّ جسور التواصل بين الأجيال. وفي ذلك تطوير وتثوير لما هو سابق، وربطه بما هو لاحق إحياء للضمير الجمعي الذي تعيش في كنفه الأمة ضمن تماسك فكري وامتداد حضاري، يستفيد من ماضيه الذي يمثّل مصدر قوّته في بناء حضارته من خلال مدّ جسور بين الأجيال المتلاحقة. تجسّد مشاعر الانتماء القومي للأمة العربية.

- لقد تطفّن الغرب إلى القيمة الفكرية للسيرة الشعبية فراح يخصّص لها المشاريع الهادفة من جمعها ودراستها دراسة إجرائية هادفة من منظور أنّها تمثّل نصّاً ثقافياً تتفاعل فيه أطراف المجتمع وما اعتراه من أحداث تاريخية كان لها الأثر العميق في بلورة الذاكرة الشعبية وتوجيه الضمير الجمعي. ولا يسعنا نحن العرب إلّا أن نحذو حذوهم في هذا المجال ونعدّ العدة الكاملة لجمع ودراسة كل ما له علاقة بهذا المجال. وإعادة البحث والتنقيب في أعطاف هذه السّير ومساءلتها مساءلة علمية جادّة وهادفة عن طريق تحديد الأدوات الإجرائية في تفعيله والتعامل معه وتحيينه عبر مختلف الأسئلة المغيية كي تستطيع السيرة الشعبية أن تُعتق من ربكة عدم الاهتمام. وتحرّر من إसार التهميش والاستصغار.

- إعادة الاعتبار للسيرة الشعبية باستغلال مختلف عطاءات العلوم ذات الصلة بالسرديات. وتفعيل الإجراءات العلمية الصّارمة تجنّباً للتكرار والاجترار. إن البحث في التراث كما نريده أن يكون لا يتطلّب الارتياح إلى الأجوبة المسبقة، بل يتطلّب الانطلاق من صياغة فرضيات محكمة، ومن رؤية وأسئلة جديدة.

7. الهوامش: 25

- ¹ - القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، دار الجيل، بيروت، ج: 56/02.
- ² - لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط: 01، ج: 389/04.
- ³ - تاج العروس من جواهر القاموس، مرتضى الزبيدي، دار الهداية، ج: 2983/01.
- ⁴ - فنّ كتابة السير الشعبية، فاروق خورشيد، محمود ذهني، منشورات اقرأ، بيروت، 1980م، ص: 22.
- ⁵ - ينظر: المرجع السابق، ص: 33.
- ⁶ - أدب السيرة الشعبية، فاروق خورشيد، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونغمان، القاهرة، ط: 1994، 01م، ص: 44.
- ⁷ - المصدر نفسه، ص: 44.
- ⁸ - المصدر نفسه، ص: 54.
- ⁹ - أولية النص، نظرات في النقد والقصة والأسطورة والأدب الشعبي، طلال حرب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، لبنان، ط1، 1999م، ص: 194.
- ¹⁰ - السيرة الشعبية، فاروق خورشيد، الشركة المصرية العالمية للنشر، دار نوبار للطباعة، القاهرة، ط: 01، 1994م.
- ¹¹ - سرديات الرواية العربية المعاصرة، صلاح صالح، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط: 01، 2003م، ص: 22.
- ¹² - نظرية الأدب، رنية ويليك، و أوستن وارن، ترجمة: عادل سلامة، دار المريخ، الرياض، المملكة العربية السعودية، ص: 67.
- ¹³ - أدب السيرة الشعبية، فاروق خورشيد، ص: 329.
- ¹⁴ - أولية النص، نظرات في النقد والقصة والأسطورة والأدب الشعبي، طلال حرب، ص: 115.
- ¹⁵ - البيان والتبيين، الجاحظ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط: 01، 2003م، ج: 241/01.
- ¹⁶ - أدب السيرة الشعبية-فاروق خورشيد، ص: 195.
- ¹⁷ - أمثال جزائرية " أمثال متداولة في قرية الحمراء ولاية برج بوعرييج"، عبد الحميد بن هدوقة، الجزائر، 1992م، ص: 13.
- ¹⁸ - فنّ كتابة السيرة الشعبية، فاروق خورشيد، محمود ذهني، ص: 234.
- ¹⁹ - الرواية والتراث السرد، سعيد يقطين، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط: 01، 2005م، ص: 30.
- ²⁰ - من التراث الشعبي، دراسة تحليلية للحكاية الشعبية، أحمد زياد محبك، دار المعرفة، بيروت، 2005م، ص: 76.
- ²¹ - ينظر: نحن والتراث، محمد عابد الجابري، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1993م، ص: 60.
- ²² - أدب السيرة الشعبية، فاروق خورشيد، ص: 212.
- ²³ - المرجع نفسه، ص: 56.

24 - السردية العربية، بحث في البنية السردية للموروث الحكائي، عبدالله إبراهيم، المركز الثقافي، بيروت، 1975م، ص: 34.

8 - المصادر والمراجع:

- أدب السيرة الشعبية، فاروق خورشيد، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونغمان، القاهرة، ط: 01، 1994م.
- أمثال جزائرية " أمثال متداولة في قرية الحمراء ولاية برج بوعريش "، عبد الحميد بن هدوقة، الجزائر، 1992م.
- أولية النص، نظرات في النقد والقصة والأسطورة والأدب الشعبي، طلال حرب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، لبنان، ط1، 1999م.
- البيان والتبيين، الجاحظ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط: 01، 2003م.
- تاج العروس من جواهر القاموس، مرتضى الزبيدي، دار الهداية
- الرواية والتراث السردية، سعيد يقطين، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط: 01، 2005م.
- سرديات الرواية العربية المعاصرة، صلاح صالح، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط: 01، 2003م.
- السردية العربية، بحث في البنية السردية للموروث الحكائي، عبدالله إبراهيم، المركز الثقافي، بيروت، 1975م.
- السيرة الشعبية، فاروق خورشيد، الشركة المصرية العالمية للنشر، دار نوبار للطباعة، القاهرة، ط: 01، 1994م.
- فنّ كتابة السير الشعبية، فاروق خورشيد، محمود ذهني، منشورات اقرأ، بيروت، 1980م.
- القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، دار الجليل، بيروت.
- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط: 01.
- من التراث الشعبي، دراسة تحليلية للحكاية الشعبية، أحمد زياد محبك، دار المعرفة، بيروت، 2005م.
- نظرية الأدب، رنيه ويليك، و أوستن وارن، ترجمة : عادل سلامة، دار المريخ، الرياض، المملكة العربية السعودية.
- نحن والتراث، محمد عابد الجابري، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1993م.